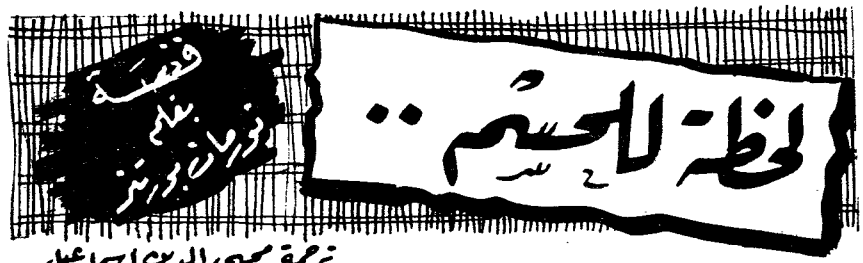

كنت اتساءل لم لم أدع كارل بولارد يغرق .. على أني لم أكن لأحمل له كراهية او حقدا . فهو انسان طيب ، ولم يكن بأكثر من ولد عاطفي ، الى اقصى حد ، ورقيق الى اقصى حد ، كما أنه موسر ايضا الى أقصى حد . ولو لم يكن قد تزوج من كونستانس ، لانقذته يومئذ خلال نصف دقيقة فحسب . بيد اني آثرت ان ارقبه ، والماء يدور فوق رأسه ، وأنا اعجب !

ولم يكن لأحد ان يعرف ما فعلت ... أن يعرف بأني اوشكت ان اقتله ، كما لو أني قد دفعت به للقرار بيدي ، بل كما لو اني امسكت بجسده المنبسط ، وهو يتلوى ، فاخذت احس به وهو يزداد ترهلا بين يدي .

وأنى لأحد ان يعلم ذلك ؟ فلقد كنت يومئذ ، ساكنا مطمئنا على حفافي الرصيف ، مدليا قدمي في الماء البارد ، وبين اصابعي سيكارة ، ومن ورائي زوجة كارل بولارد ، تتحدث ، بهدوء مع بعض ضيوفها . ومن ورائها تمتد ارض كارل بولارد على طول الساحل ، وتمعن في الامتداد ، هادئة رقيقة حتى تبلغ دار كارل بولارد الرحيبة المقابلة للمرفأ في العدوة الاخرى .

ولقد حدقت ما بين اصابع قدمي في جسم كارل بولارد الابيض في الماء . وكان يحدق هو في ايضا فيما كان يندفع الى القرار . وكانت نظرة غريبة ، معذبة متوسلة . اذ كان يبدو ، كما لو انه كان يعلم تماما ما قد حدث له . ثم فتح فمه ليصرخ ، فشهق بالماء الذي اندفق الى صدره الصبياني ، ثم هبط مع مويجة لا غير ... لقد كان ذلك تشنجا ـ كما اظن ـ ، فقد سبق لي ان شهدت مثل هذا المشهد ، غير انه لم يكن على هذا النحو من السرعة الخاطفة .

كان عمق المرفأ في نهاية الرصيف ، اثني عشر قدما ، وكان مخضوضرا تميل شفافيته الى الصفرة . اما القعر فكان مرملا ... وبدا واضحا أشد الوضوح ، بل بريئا أشد البراءة مصرع انسان هناك . غير أني كنت اعلم ما قد حدث ... لقد كان في مقدوري ان ارى تخبط كارل بولارد البطيء المتشنج ، اذ كان قد بلغ منتصف الطريق الى القرار . فكم بقي له من زمن لكي يلمس الرمل ؟.. ثانية ؟.. ثانيتان ؟.. عشر ثوان ؟.. بل أية أبدية من الزمن تطويها الثانية الواحدة هناك ؟

كانت كونستانس قد حذرته ، وقالت له : ما زال هناك متسع من الوقت ، بعد الغداء . بيد انه ضحك بذلك الاسلوب الصبياني ، وربت على ذقنها بلطف ورقة ، ثم اندفع يركض ، نحو الرصيف ، ليقفز من فوق رأسي ... وما أزال ، الى هذه اللحظة ، احس بهبة الريح عند مروره . فقد كانت باردة ، رطبة ، أصابتني على ظهري .

وأظن .. أن ملاطفته لذقنها هو الذي سمرني وجعلني اظل ساكنا ، وهو يغرق . فلست ارى ان كونستانس جديرة بأن يلاطف المرء ذقنها ... انك لن تستطيع ذلك ، كما أنك لن تستطيع أن تغني أغنية « السونغ » في الكنيسة .. أتستطيع ذلك ؟.. هذا هو ما أعنيه بالضبط .

أوه !.. ما أنا الا رجل معتوه ، لاتحدث عن الكنائس ! على أن كونستانس ، تحمل الي هذا المعنى . فبالأمس رأيتها ، لاول مرة ، بعد مرور ثلاث سنوات . وكان الامر بالنسبة الي أسوأ مما كان يومذاك ... أسوأ وأعمق . انه لم يكن مجرد امر بين فتى وفتاة ... بين رجل وامرأة ، فها هي متزوجة الان من كارل بولارد .

كانت هذه المرأة جديرة ان تتزوج مني ، لو أن الامور سارت على وجهها السليم ... ولو أنها لم تتزوج من كارل بولارد !

وفكرت أن عاما واحدا في بوينس آيرس ، سيهيء لي بداية حسنة . فكان عوضا عن ذلك ، ثلاثة اعوام في بوينس آيرس ، وكان هناك حظ سيء في جميع ضروب المقامرة ... ولكن ذلك جعلني اتذوق الحياة ، وقدم لي القليل مما اعتاش عليه خلال ثلاثة اعوام .

وفي الاشهر الاولى ، كانت بيننا رسائل ... « حبيبتي كونستانس ، لقد افتقدتك كثيرا ... أتمنى ان يمر العام سريعا ... » « كم افتقدتك يا « ألك » ، يبدو ان ما مر علينا هو عام كامل ... فاكتب لي دائما . »

على ان الرسائل تباطأت بعد ذلك ، ثم توقفت نهائيا . واني لأعلم ان تلك هي غلطتي ، اذ ما استطعت أن اكذب عليها في أمر النقود ، فقد كان من المفروض مقدما ، أن اجمع هاتيك النقود .

وكان الامر حسنا ، في العام التالي ، يوم أن سمعت بأنها قد تزوجت ... لقد تسربت الي هاتيك الانباء بشكل من الاشكال ، ولم اكترث بها يومئذ قط ، فقد كانت لي تسلياتي الاخرى .

وكم هو امد طويل ، تلك السنين الثلاث ، التي تكاد تبلغ في طولها تلك اللحظة الابدية ، التي اقتضت كارل بولارد ، حتى يبلغ الرمال الصفراء !.. وها هو الان يوشك ان يبلغها ، ولم يعد في معالمه شيء واضح يمكن تمييزه . فقد استحال الى لطخة سوداء تتحرك في بطء شديد ... اما الاعوام الثلاثة ، فقد كانت كافية ان تعرفني على كل شيء في الارجنتين .

وبوسيلة ما ، علمت كونستانس اني رجعت . فكتبت لي محض رسالة اخوية ترحيبية على عودتي . ومعنى ذلك ، بكلمة اخرى ، انها لم تكن لتحمل لي تلك العواطف الحادة . فلقد انقضى ذلك الامر .. انقضى ما بين الفتى والفتاة !

وعلى فجأة مني ، احسست برغبة شديدة في ان اراها ، وان اتحدث اليها . فوجدتها هنا ، على هذا المرفأ بالذات . وتذكرت ، يومذاك ، بانها هي كونستانس بذاتها ، على انها قد طامنت من نفسها قليلا ،

واستقرت قليلا ، بل رضيت قليلا ... انها هي كونستانس بعينها ، ولو ان جسدها قد استدار، واكتنز باللحم ، وهو ذلك الجسد الذي كان فارغا ممشوقا . بيد اني لمحت في عينيها شيئا جديدا ، عندما نظرت الي ، كم تمنيت معه الا افارقها قط ، لقد كان القا ، بل اكثر من القى ، ولم يكن مجرد صداقة فحسب .

وذلك الالق في عينيها ، هو الذي استبقاني ساكنا في المرفا . فما كان لي ان اظل في موضعي دونما حراك ، مع بولارد ، لو لم يكن ذلك في عينيها ، ولو لم يكن ذلك الحشد من الضيوف البلداء الثرثارين ، كما هو شان الضيوف ابدا، ولولا هذا الزوج الذي يظل يكشر في وجهها كطفل اخرق ، ويطبطب على ذراعها ، ويلاطفها من ذقنها .. اما هذا الالق في عينيها ـ انى وجهت بصرها الي ـ فهو تعويض لي عن كل شيء !

وحاولت ان اشيح بوجهي عن جسد كارل بولارد ، الذي اوشك ان يستقر على الرمال الان ، وان انظر من فوق كتفي الى كونستانس... اردت ان انظر الى تينك العينين المتألقتين تواجهان عيني ، غير اني لم استطع حراكا .

وبدلا من ذلك ، فكرت في شيء طريف ، شديد الطرافة حقا ... فكرت في اني لو جلست ساكنا بلا حراك زمنا اطول بقليل ، فان هذا الرصيف ، والدار ، والمرفا واشياء اخرى كثيرة ، ستكون جميعها ملكا لكونستانس . وستكون كونستانس يومئذ موسرة حقا ، ولا شك ان ذلك الالق ستحتفظ به عيناها ، وهما تتجهان نحوي .

ثلاثة اعوام في الارجنتين من اجل لا شيء ... وثلاث لحظات على الرصيف مع كارل بولارد،من اجل كل شيء ! فلم لم ادع كارل بولارد يستقر على الرمال ويغرق؟

عجيب امرك ، كيف تشتد حدة احساسك ، حتى تتخطى الوضع الطبيعي عندما تكون متوترا وساكنا في آن !.. وعندما كنت ارقب تلك اللطخة المخضوضرة البيضاء التي لم تكن سوى كارل بولارد ، اتضحت في سمعي تلك الاصوات الانثوية التي لم تكن واضحة عندي .. انها هي كونستانس تتحدث الى ضيوفها .

وقالت : يبدو الماء طيبا ، وكم اود النزول فيه .

وتساءلت اخرى : ولم لا يا كونستانس ؟ اني اعجب من ذلك !

واجابت : اش ... اش ... اوامر الطبيب

وكانت هناك فترة صمت تبعها صوت يقول : « لا ! لا ! يا كونستانس!»

« اظن ان عليك ان تعلمي، كما ستعلمين بعد .. الا ترين هذا العبء الذي البسه ؟»

« عزيزتي .. لم تكن لنا اية فكرة ، ولكن عرفت الان ، لماذا كان كارل شديد التيقظ ، وهذا الالق في عينيك ... وكل سمات ... »

وهذا الالتماع في عينيها .. وهذا الالق !

واخيرا كان جسد كارل بولارد قد استقر على الرمل ، وهو يتدحرج بلزوجة فظيعة دون ان تكون له معالم ..

وسقطت سيكارتي في الماء ، وسمعت هسيسها ، وعندئذ غصت في الماء دون ان اتريث . وكادت قبضة كارل بولارد ان تكسر ذراعي.

ترجمة

بغداد — محي الدين اسماعيل

رسالة
إلى صديقة في الجنوب

« كتبت في بيروت ليلة ١٠/٧/٩٥٧ »

صديقتي !...
وانت في الجنوب
يظلّك النخيل ...
تحلمين بالغد السعيد ...
وبالحياة حلوة ...
في عالم اخضر كالربيع ...
تنبع من اعماقه نافورة الضياء
وفي رباه الباسمات ..
راية الاخـــاء
ترف للجميع ... للجميع ...

...

صديقتي !
وانت تحلمين بالغد السعيد
صلي لاجلي ، انني شريد ...
تلفظني الدروب
ويحتويني عالم يسبح بالظلام
رغم الضياء الصامت الكئيب
في ليل « بيروت » الموشى بالطلاء
عالمي ظلام !. .
دروبه تهزأ بي
صارخة في وجهي الحائر :
يا غريب !.. يا غريب !..
تطردني ...
تلعنني ..
لانني غريب !!..
فانثني .. كأنني
آدم يوم مزق الحجاب ...
وفي يدي كتاب
اقتل فيه الليل .. ، والدروب
تظل تلعن الغريب
وتنشر الورود للذئاب ..
الذئاب !!..

بغداد — حسن البياتي